

الفصل الثلاثون

ذكر ما في مصر أم الدنيا من مكاتب الصبيان لتعليم القراءة

في القاهرة ألفان وخمسة عشر مكتب للصبيان أوقافها دائمة، بالإضافة إلى ألفا مكتب لتعليم الحساب إلا أن أوقافها معطلة، وقد أقام مائة وستة وخمسون سلطاناً على أسبلة جوامعهم مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولسائر الوزراء والوكلاء والأثرياء وأصحاب الخيرات أربعة آلاف سبيل، وفوق كل سبيل مكتب منقوش ذو كوات وكأنه قصر يوسف. وهذا دأب أهل مصر، فكل مكاتبها مقامة فوق الأسبلة، وكلها مكسوة بقماش زنبورى، وفي هذه المكاتب يتلو جميع الصبيان آيات الذكر الحكيم. وطبق هذا الإحصاء يوجد في مصر كلها ستة آلاف ومائة وستة وسبعون مكتباً، وأغلبها تابعة لجوامع السلاطين.

وفي النصف من شهر رمضان يجتمع مدرسو مكاتب السلطان الغورى والسلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الأشرف والسلطان المؤيد وغيرها من مكاتب السلاطين والوزراء وحولهم الصبيان من الفقراء والمعوزين وينقسمون طائفتين: طائفة تقول: (يا حنان)، وطائفة أخرى تقول: (يا منان)؟ وقد تشابكت أيديهم وتعالق أصواتهم ومروا في وسط السوق وقد تبعهم شيوخهم وانطلق الجميع إلى مكتب الناظر. وينال جميع الصبيان من الوقف قماشاً من حرير مصر والخلع والقلائس الحريرية ويلبسونها، ويتقاضون مرتباتهم وهى من أربعين أو خمسين باره مصرية، ثم يمضون في طريقهم فرحين قائلين: «يا حنان يا منان» وتدوم الحال على ذلك في القاهرة من منتصف رمضان حتى يوم عرفة، وتموج مكاتب الصبيان بهم ويمضون زرافات زرافات إلى نظارهم.

حقاً إنها لأوقاف عظيمة، وفي وقت الظهر والعصر يصعد المؤذنون الأذان من منائر جميع جوامع السلاطين وبذلك تغمر عظمة الله تعالى كل أرجاء القاهرة. وفي المكاتب التى على الأسبلة يترنم أربعون أو خمسون صبياً رخيم الصوت بمنظومة المحمدية، ويدوم الأذان في القاهرة مدة ساعة بنغمات حجاز وسيكاه وحسينى، ومثل هذا الأذان في مكاتب الصبيان لا وجود له في بلاد أخرى.

وبعد الصلاة يجتمع الصبيان جميعاً فى مكان ويتلون على العموم سورة الملك، ثم يصلون صلوات طويلة، ويدعون بخير لصاحب الثواب. وهذه العادة غير معروفة كذلك فى بلد آخر.

وفى هذه المكاتب يتنافس الصبيان فى تصعيد الأذان بأصوات رخيمة، وأنفاس طويلة، وهذا ما تُشَنَّفُ به الأسماع وتشرح به الصدور. وإذا ما مر موكب بعض الأعيان أو الوزراء وشربوا من الأسبلة التى تعلقها مكاتب الصبيان رفع الصبيان جميعاً أصواتهم بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ {الإنسان: ٢١} فيكرمهم بعض أهل الكرم. وهذا هو النظام المرعى فى مكاتب الصبيان فى مصر.

أما مكاتب صبيان الترك فسيبون، ولكنها ليست مكاتب مقامة فوق الأسبلة، وكانها القصور، ففى الحارات وبالقرب من تكية سيدى الكلشنى يتولى التدريس معلمون وخطاطون فى دكاكينهم لسبعين أو ثمانين طفلاً تركياً، ويدرسون علم الحساب وعلم الكتاب وعلم القراءة، وليس بينهم أبناء الفلاحين ولا أبناء الحضر، وجميع معلمى هذه المكاتب من الترك الذين يسكنون فى هذه الحارات.

